الدعاء...
المفتاح الأعظَم لخزائن اللّه

رحلة إيمانية في أسرار الدعاء وآدابه وآثاره

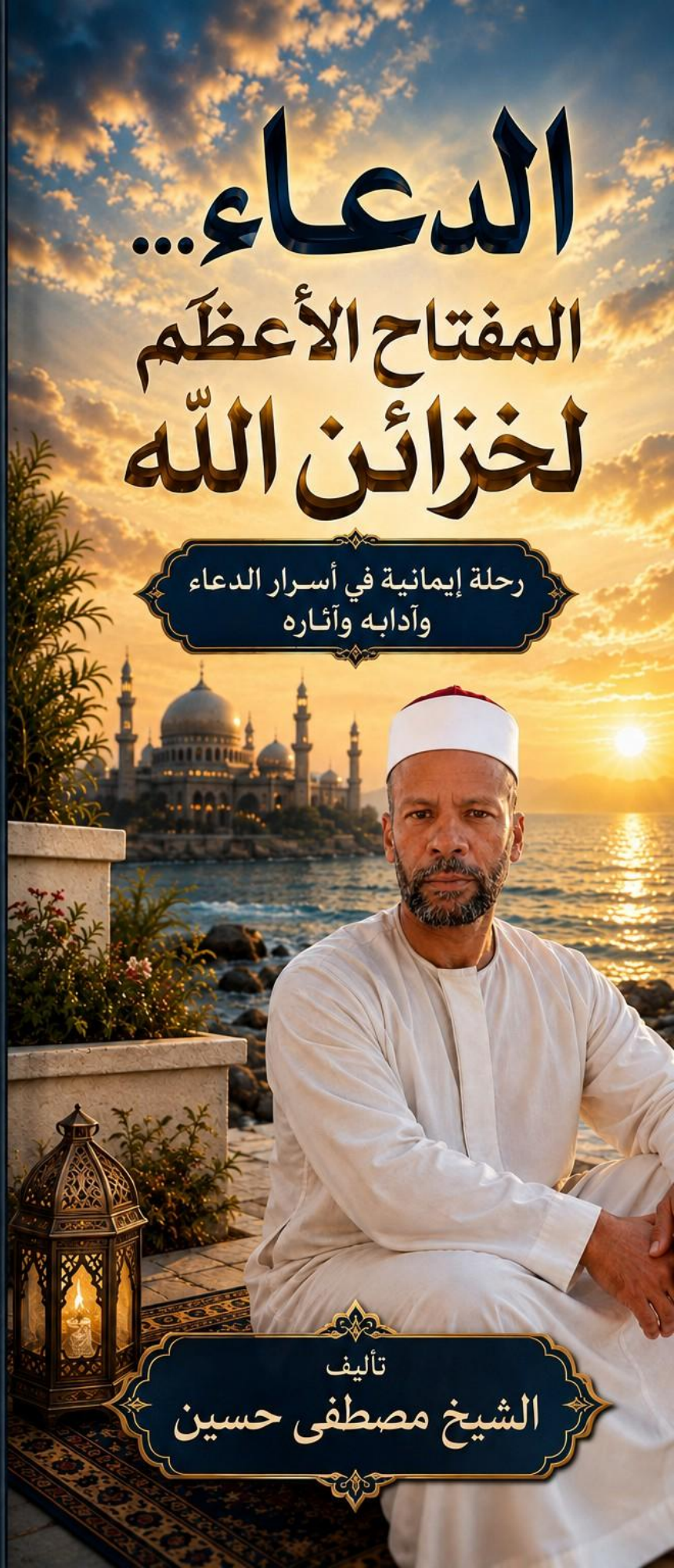

تأليف
الشيخ مصطفى حسين

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

تأليف الشيخ مصطفى حسين

الدعاء

هو سر الصلة بين العبد وربه، وهو الباب الذي لا يُغلق، والطريق الذي لا ينقطع، والحبل الذي لا ينفصم، مهما اشتدت الخطوب وتعاطمت الكروب.

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

[غافر: ٦٠]

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة الأولى

مقدمة

الحمد لله الكريم الوهاب، واسع الفضل، عظيم الإحسان، الذي بيده خزائن السماوات والأرض، يعطي من يشاء بغير حساب، ويمنع بحكمة، ويؤخر بعلم، ويقدم برحمة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، الذي علَّم أمته أن تلجأ إلى ربها في السراء والضراء، وفي الغنى والفقر، وفي الصحة والمرض، وفي الشدة والرخاء.

أما بعد...

فهذا كتابٌ صغير الحجم، عظيم المقصد، أردت به أن أطرق بابًا طالما طرقه الصالحون، وبكوا عنده، وانكسرت قلوبهم بين يدي الله، ففُتحت لهم أبوابٌ لم يكونوا يتوقعونها، وتبدلت أحوالهم، وانقلب يأسهم رجاءً، وضعفهم قوة، وضيقهم سعة.

إنه **باب الدعاء**.

وليس الدعاء كلمات تُقال باللسان، ثم تنتهي بانتهاء المجلس، وإنما هو حياة قلب، وافتقار روح، وانكسار عبد بين يدي مولاه، يعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا نجاة إلا بعفوه، ولا غنى إلا بفضله.

كم من إنسان أغلقت في وجهه أبواب الأرض كلها، ثم فتح الله له باب السماء بدعوة صادقة!

وكم من مريض عجز عنه الأطباء، فرفع يديه إلى ربه، فجعل الله له من رحمته ما لم يخطر له على بال.

وكم من مهموم أثقلته الهموم، فلما ناجى ربه في ظلمة الليل، خرج من سجوده وقلبه ممتلئ يقينًا، ثم رأى من لطف الله ما أدهشه.

إن خزائن الدنيا لها مفاتيح يصنعها البشر، أما خزائن الله فمفتاحها الأعظم: صدق اللجوء إليه، وكثرة دعائه، وحسن الظن به.

ومن عرف ربه، لم ييأس.

ومن أكثر من قرع الباب، أوشك أن يُفتح له.

ومن صدق في السؤال، وجد من الكرم الإلهي ما يعجز اللسان عن وصفه.

ولذلك كان الأنبياء - عليهم السلام - أكثر الناس دعاءً، مع أنهم أقرب الخلق إلى الله، لأنهم علموا أن الدعاء ليس دليل ضعف، بل هو عنوان العبودية، وشرف الافتقار إلى الله.

وسيصحبك هذا الكتاب في رحلة إيمانية، ننتقل فيها بين آيات القرآن، وهدايات السنة، وتأملات القلوب، لنزداد يقينًا بأن الله سبحانه لا يرد من أقبل عليه بقلب صادق، وأن خزائنه لا تنفد، وأن عطاياه لا يحدها حد، وأن رحمته سبقت غضبه.

فلنبدأ الرحلة، ولنجعل أول الطريق دعاءً، وأوسطه دعاءً، وآخره دعاءً، لعل الله أن يفتح لنا من أبواب فضله ما لم يخطر لنا على بال.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة الثانية

حين تنقطع الأسباب... يبدأ الطريق إلى الله

تمر بالإنسان لحظات يظن فيها أن الأبواب قد أغلقت كلها، وأن الطريق قد انتهى، وأن المستقبل قد أظلم، فلا يرى أمامه إلا اليأس. وفي تلك اللحظات يهمس الشيطان في قلبه: "لقد انتهى كل شيء."

ولكن المؤمن يسمع نداءً آخر، نداءً يقول له: **إن الذي أغلقت دونه أبواب الأرض، لا تُغلق دونه أبواب السماء.**

ما أكثر الذين ظنوا أن الرزق قد انقطع، فإذا بالله يرزقهم من حيث لم يحتسبوا.

وما أكثر الذين أيقنوا أن المرض قد تمكن منهم، فإذا برحمة الله تسبق كل حساب، فيأتي الفرج من حيث لا ينتظرون.

وما أكثر الذين ناموا وقلوبهم مثقلة بالهموم، ثم قاموا في جوف الليل، فتوضؤوا، ورفعوا أكفهم، ولم يكن معهم إلا الدموع... فلما أشرقت شمس الصباح، أشرقت معها بشائر الفرج.

ليس السر في كثرة الكلمات، وإنما السر في صدق القلب.

فقد يرفع رجل يديه بدقائق معدودة، فتُفتح له أبواب من الخير لا يفتحها كلام طويل خالٍ من حضور القلب.

إن الله لا ينظر إلى فصاحة الألسنة، وإنما ينظر إلى انكسار القلوب، وصدق الافتقار، وحسن الرجاء.

إذا أردت أن ترى أثر الدعاء، فانظر إلى قلبك قبل أن تنظر إلى حالك.

فإن وجدت السكينة قد نزلت، والطمأنينة قد سكنت، فاعلم أن أول الإجابة قد بدأت.

وقد تتأخر الإجابة التي تتمناها، لكن الله يمنحك قبلها ما هو أعظم: يمنحك قوة على الصبر، وثباتًا عند البلاء، ورضًا بقضائه، ويقينًا بأنه سبحانه يدبر لك الخير وإن خفي عنك.

كم من أمنية تأخر تحقيقها، فلما جاءت بعد سنوات قال صاحبها: الآن فقط علمت لماذا لم تتحقق يوم طلبتها.

فالله يعلم، ونحن لا نعلم.

ويرى، ونحن لا نرى.

ويدبر، ونحن نعجز عن إدراك حكمته.

فلا تستبطئ الإجابة، ولا تترك الدعاء؛ فإن الزارع لا يترك أرضه لأنه لم يحصد في اليوم الأول، وإنما يواصل السقي حتى يأتي أوان الثمرة.

واعلم أن الدعاء الصادق لا يضيع، بل هو بين ثلاث عطايا عظيمة: إما أن يعجل الله لك مطلوبك، أو يدخر لك خيرًا أعظم، أو يصرف عنك من السوء ما لا تعلمه.

فإذا أيقن القلب بذلك، لم يعد الدعاء مجرد طلب، بل أصبح عبادة، وأنسًا، وقربًا، وحياة.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة الثالثة

الأنبياء... وإذا ضاقت بهم الدنيا لجؤوا إلى الدعاء

إذا أردت أن تعرف منزلة الدعاء، فانظر إلى سيرة الأنبياء عليهم السلام، فإنهم كانوا أعرف الناس بربهم، وأعظمهم يقينًا به، ومع ذلك لم يستغنوا عن الدعاء طرفة عين.

كان الدعاء زادهم في الطريق، وسلاحهم عند الشدة، وشكرهم عند النعمة، وأنيسهم في الخلوات.

لما اشتد الكرب على نبي الله نوح عليه السلام، لم يعتمد على قوته، ولا على كثرة أتباعه، وإنما رفع أمره إلى ربه، فجاءه النصر من عند الله.

ولما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، كان قلبه معلقًا بالله، يعلم أن الأسباب كلها بيده سبحانه، وأن الذي يملك النار يملك أن يجعلها بردًا وسلامًا.

ولما خرج موسى عليه السلام خائفًا لا يملك مأوى ولا مالًا، وقف بين يدي ربه يناجيه، معترفًا بفقره الكامل إليه، فقال: **(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)**، فما هي إلا لحظات حتى ساق الله إليه الأمن، والعمل، والزواج، والمستقبل الذي لم يكن يتصوره.

ولما اشتد المرض بنبي الله أيوب عليه السلام، لم يعترض على قضاء الله، ولم ييأس من رحمته، وإنما ناجى ربه بأدب العبودية، فأبدله الله صحة بعد مرض، وفرجًا بعد كرب.

ولما ابتلع الحوت يونس عليه السلام، لم يكن بينه وبين النجاة جيش، ولا سفينة، ولا قوة بشرية، وإنما كانت كلمات خرجت من قلب منكسر: **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)**، فاستجاب الله له، وجعل تلك الكلمات سببًا للنجاة.

وتأمل في خليل الرحمن، وكليم الله، وأيوب، ويونس، وزكريا، وسائر الأنبياء، تجد أن الجامع بينهم ليس خلو حياتهم من الابتلاء، بل سرعة رجوعهم إلى الله كلما اشتدت المحن.

إن الدعاء لا يغير علاقتك بالله وقت الأزمة فحسب، بل يبني قلبًا يعرف إلى من يلجأ قبل أن يسأل: أين المخرج؟

وما أجمل أن يجعل المؤمن لسانه رطبًا بالدعاء في الرخاء قبل الشدة؛ فإن القلب الذي اعتاد الوقوف على باب الله في أيام السعة، لا يضل الطريق إلى ذلك الباب إذا نزل البلاء.

واعلم أن أعظم خسارة ليست أن يتأخر عنك مطلوب، وإنما أن يضعف يقينك بمن بيده كل مطلوب.

فلا تيأس، ولا تمل، ولا تقل: دعوت كثيرًا فلم أر شيئًا.

بل قل: سأظل أدعو؛ لأن الدعاء عبادة، ولأن ربي كريم، ولأن خزائنه لا تنفد، ولأن من أحسن الظن بالله لم يخيبه الله.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة الرابعة

بين الدعاء واليقين... تُفتح أبواب السماء

ما أكثر من يدعو، ولكن ما أقل من يحسن الظن بربه.

إن اليقين هو الروح التي تسري في الدعاء، فإذا فارق اليقين القلب، بقيت الكلمات تتحرك على اللسان، ولكنها لا تحمل حرارة الافتقار، ولا صدق الرجاء.

تأمل حال طفل صغير إذا اشتدت به حاجة، فإنه لا يتردد في الذهاب إلى أبيه، لأنه يعلم أن أباه يحبه، ويرحمه، ويسعى في قضاء حاجته. فكيف إذا كان الذي تدعوه هو الله، أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وأجود من سُئل، وأوسع من أعطى؟

إن ربك لا يمل من عطائك السؤال، وإنما يكره أن تعرض عنه، وأن تظن أن غيره يملك لك نفعًا أو ضرًا.

فإذا وقفت بين يديه، فقف بقلب منشرح، وقل لنفسك: إنني أقف على باب ملك الملوك، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

ولا تقل: إن ذنوبي كثيرة.

بل قل: إن رحمة الله أكبر.

ولا تقل: إن حاجتي عظيمة.

بل قل: إن قدرة الله أعظم.

ولا تقل: لقد تأخرت الإجابة.

بل قل: إن الله يختار لي الوقت الذي يكون فيه الخير كله.

كم من إنسان كان يدعو بشيء، ولو أُعطيه في حينه لكان فيه هلاكه، فصرفه الله عنه رحمة به، ثم أعطاه بعد حين ما هو خير وأبقى.

ولو كشف الله لعباده حجاب الغيب، ورأوا كيف يدبر لهم أمورهم، لبكوا حياءً من ربهم، ولعلموا أن رحمته تحيط بهم في كل لحظة، حتى في المواطن التي ظنوها حرمانًا.

إن المؤمن لا يعبد الله على قدر ما يرى من العطاء، وإنما يعبده لأنه يعلم أن الله هو الحكيم، الرحيم، الكريم.

ومن أعظم علامات صدق الدعاء أن يخرج العبد من دعائه وهو أكثر طمأنينة، وأكثر رضا، وأشد تعلقًا بالله، ولو لم تتغير الظروف بعد.

فالطمأنينة أول الهدايا.

والسكينة أول الفتوح.

والرضا أول أبواب الإجابة.

فإذا وجدت قلبك قد هدأ بعد الدعاء، فاعلم أن الله قد فتح لك بابًا من رحمته، وربما كان ما ينتظرك أعظم مما سألت، وأوسع مما تمنيت.

ولذلك، لا تجعل الدعاء عادة تؤديها، بل اجعله حياة تعيشها، وحديثًا دائمًا بينك وبين ربك، ومفتاحًا لا يفارق يدك، فإن الكريم سبحانه يحب من عبده أن يكثر من سؤاله، وأن يلح عليه، وأن يوقن بأن خزائن الله لا تنفد، وأن فضله لا ينقطع، وأن من صدق في قرع الباب، فلابد أن يأتيه يوم يُفتح له فيه الباب، فيعلم أن كل لحظة انتظار كانت رحمة، وكل دمعة كانت عبادة، وكل دعاء لم يضع عند الله أبدًا.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة الخامسة

الدعاء... عبادة لا يعرف قدرها إلا من عرف الله

إذا سألت الناس: ما أعظم عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه؟ لذكر كثير منهم الصلاة، أو الصيام، أو الصدقة، وكلها عبادات عظيمة جليلة.

ولكن تأمل في الدعاء...

إنه العبادة التي تجمع معاني الإيمان كلها؛ ففيه توحيد، لأنك لا تسأل إلا الله، وفيه رجاء، لأنك تنتظر فضله، وفيه خوف، لأنك تخشى عقابه، وفيه محبة، لأن القلب لا يقف على باب من يحب إلا وهو مشتاق إلى قربه، وفيه توكل، لأنك تفوض الأمر كله إليه، وفيه افتقار، لأنك تعترف بعجزك وكمال قدرة ربك.

ولهذا كان الدعاء مدرسةً يتربى فيها القلب قبل اللسان.

فكلما أكثر العبد من الدعاء، ازداد معرفة بربه، وازداد يقينًا بأن الخير كله بيده سبحانه.

ومن أعظم الأخطاء أن يظن الإنسان أن الدعاء لا يكون إلا عند نزول المصائب.

بل المؤمن يدعو في كل أحواله.

يدعو إذا فرح؛ ليبارك الله له نعمته.

ويدعو إذا حزن؛ ليكشف الله غمته.

ويدعو إذا احتار؛ ليهديه إلى الصواب.

ويدعو إذا خاف؛ ليؤمنه الله.

ويدعو إذا أذنب؛ ليتوب الله عليه.

فحياة المؤمن كلها دعاء، وقلبه كله تعلق بالله.

واعلم أن من أعظم أبواب الحرمان أن يستغني القلب عن الدعاء، فيظن صاحبه أنه قادر بعقله، أو ماله، أو منصبه، أو قوته.

وما علم أن الله إذا ترك العبد إلى نفسه لحظة واحدة، هلك.

أما إذا أكثر من الدعاء، فإن الله يرزقه من التوفيق ما لا يقدر عليه بنفسه، ويهيئ له من الأسباب ما لم يكن في حسبانه.

كم من باب ظن الناس أنه مغلق، فإذا بالدعاء يفتحه.

وكم من عقدة استعصت على العقول، فإذا بالله يحلها بكلمة: **كن**.

وكم من قلب مات من القسوة، فأحياه الله بدعوة صادقة خرجت في ساعة خلوة، لم يسمعها أحد من الخلق، ولكن سمعها رب الخلق.

فإذا أردت أن تعرف مكانتك عند الله، فانظر إلى مكانة الدعاء في حياتك.

هل هو ضيف يزورك عند الشدة؟

أم هو رفيق لا يفارقك في كل يوم؟

إن القلوب التي تعيش مع الدعاء لا تعرف اليأس، لأنها تعلم أن ربها حي لا يموت، كريم لا يبخل، قريب لا يغيب، سميع لا تخفى عليه نجوى، بصير يرى دمعة العين قبل أن تنحدر، ويعلم حاجتك قبل أن تنطق بها، ومع ذلك يحب أن يسمع منك، وأن يرى افتقارك إليه، وأن يرفعك بمقام العبودية بين يديه.

فلا تترك بابًا فتحه الله لك، ولا تهجر طريقًا سار فيه الأنبياء والصالحون، واجعل الدعاء أنيس ليلك، ونور نهارك، وسر حياتك، فإن من لازم هذا الباب موقنًا، لم يرجع خائبًا أبدًا.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة السادسة

لماذا تتأخر الإجابة؟

هذا السؤال يتردد على ألسنة كثير من الناس:

دعوت الله سنوات... فلماذا لم أرَ ما أريد؟

وهنا ينبغي أن يعلم العبد أن تأخر الإجابة لا يعني أبدًا أن الله لم يسمع دعاءه، ولا أن الله رده، ولا أن العبد محروم من رحمته.

فالله سبحانه يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فكيف لا يسمع دعاء عبدٍ رفع يديه إليه؟

ولكن الله سبحانه حكيم، والحكمة تقتضي أن يعطي في الوقت الذي يكون فيه العطاء خيرًا، وأن يمنع في الوقت الذي يكون فيه المنع رحمة.

كم من إنسان ألح على الله في أمر، ولو تحقق له في حينه لكان سببًا في شقائه، فأخره الله عنه رحمةً به.

وكم من باب أغلقه الله في وجه عبده، لأنه أراد أن يفتح له بابًا أعظم.

ولو علم الإنسان ما يدخره الله له من الخير، لشكر الله على كل دعاء تأخرت إجابته.

إن الطفل قد يبكي طالبًا شيئًا يضره، فيمنعه أبوه رحمةً به، مع أن الطفل يظن أن المنع قسوة، والحقيقة أنه عين الرحمة.

ولله المثل الأعلى.

فإذا أخر الله عنك شيئًا، فلا تظن أن خزائنه قد نفدت، ولا أن رحمته قد انقطعت، بل قل: **ربي يختار لي ما هو خير، وأنا أرضى بحكمه، وأثق بوعده، وأنتظر فضله.**

وقد تكون الإجابة قد بدأت بالفعل، ولكنك لا تراها.

فربما أصلح الله قلبك قبل أن يصلح دنياك.

وربما رفع عنك بلاءً لم تعلم بوجوده.

وربما كتب لك من الأجر على صبرك ودعائك ما يفوق الشيء الذي طلبته.

فليس كل خير يُرى بالعين، ولا كل عطية تُقاس بالمال أو بالصحة أو بالجاه.

إن من أعظم العطايا أن يرزقك الله قلبًا راضيًا، ولسانًا ذاكرًا، ونفسًا مطمئنة، ويقينًا لا تهزه العواصف.

فإذا اجتمعت هذه النعم في قلبك، فقد فزت بخير الدنيا والآخرة.

ولهذا كان الصالحون إذا دعوا الله، لم يكن همهم الأول: **هل تحققت حاجتي؟**

بل كان همهم: **هل رضي الله عني؟ وهل اقتربت منه؟ وهل ازداد يقيني به؟**

لأنهم علموا أن أعظم ثمرة للدعاء ليست تبدل الأحوال فحسب، وإنما تبدل القلوب.

فالقلب الذي عرف الله حق المعرفة، لا يتوقف عن الدعاء إذا تأخرت الإجابة، بل يزداد قربًا، ويزداد رجاءً، ويزداد حبًا لربه، لأنه يعلم أن الكريم لا يرد من وقف ببابه صادقًا، وأن كل لحظة يقضيها العبد بين يدي ربه هي في نفسها نعمة عظيمة، ولو لم ير أثرها إلا يوم يلقى الله.

ولهذا... إذا رفعت يديك يومًا، فلا تستعجل، ولا تيأس، ولا تمل، ولكن أكثر من الثناء على الله، وأكثر من الصلاة على نبيه ﷺ، وأحسن الظن بربك، ثم امضِ في حياتك مطمئنًا، فإن الذي بيده خزائن السماوات والأرض لا يعجزه شيء، ولا يضيع عنده دعاء صادق خرج من قلب منكسر.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة السابعة

الدعاء يغيرك قبل أن يغير أقدارك

يظن كثير من الناس أن ثمرة الدعاء هي حصول المطلوب فقط، ولو كانت هذه هي الثمرة الوحيدة، لضاقت معاني الدعاء، ولكنه أعظم من ذلك بكثير.

إن أول شيء يغيره الدعاء هو **قلب الداعي**.

فكم من قلبٍ كان مضطربًا فسكن.

وكم من نفسٍ كانت خائفة فاطمأنت.

وكم من إنسانٍ دخل إلى سجادة صلاته يحمل جبالًا من الهموم، ثم قام منها، وما زالت المشكلة كما هي، ولكن قلبه لم يعد كما كان.

وهذه نعمة لا يعرف قدرها إلا من ذاقها.

إن السكينة ليست أمرًا يُشترى، ولا تُمنحها الدنيا مهما كثرت زينتها، وإنما هي هبة من الله، يقذفها في قلب من صدق في اللجوء إليه.

ولذلك كان بعض الصالحين إذا اشتدت عليه الكروب، لم يكن يبحث أولًا عن مخرج، وإنما يبحث عن خلوة يناجي فيها ربه.

لأنه يعلم أن إصلاح القلب مقدمة لإصلاح الحال.

ولأن القلب إذا امتلأ يقينًا، هانت عليه المصائب، وصغرت في عينه الدنيا، وعلم أن ما عند الله خير وأبقى.

وقد تمر على الإنسان أيام لا يرى فيها من أسباب الفرج شيئًا، ولكنه يجد في صدره نورًا، وفي قلبه سعة، وفي نفسه رضا.

وهنا يكون قد بدأ يذوق ثمرة الدعاء.

إن الله إذا أحب عبدًا، لم يمنحه دائمًا ما يريد فورًا، ولكنه يمنحه ما هو أعظم: يمنحه قربه.

وأي نعمة أعظم من أن يشعر العبد أن الله معه، يسمع نجواه، ويرى دمعته، ويعلم ضعفه، ويدبر أمره؟

ومن عرف هذا المعنى، لم يعد الدعاء عنده مجرد وسيلة لطلب الحاجات، بل أصبح لذة يعيش بها، وراحة يجدها كلما ضاقت به الدنيا.

فإذا ضاق صدرك، فلا تكثر الشكوى إلى الناس.

وإذا أثقلتك الهموم، فلا تجعل أول باب تطرقه باب المخلوق.

بل توضأ، وقف بين يدي ربك، وأطل السجود، وأكثر من الثناء عليه، وافتح له قلبك كما لو كنت تحدث أقرب الناس إليك، فإنه سبحانه أقرب إليك من كل قريب، وأعلم بحالك منك، وأرحم بك من نفسك.

وستدرك بعد الأيام أن أعظم عطايا الدعاء ليست دائمًا أن تتغير الظروف، وإنما أن تصبح أنت أقوى من الظروف، وأثبت أمام الابتلاء، وأكثر رضا بقضاء الله، وأعظم ثقة بوعده.

وحين يصل القلب إلى هذه المنزلة، يعلم أن الدعاء لم يكن بابًا لتغيير الدنيا فقط، بل كان بابًا لتغيير الإنسان نفسه، حتى يصبح قلبه معلقًا بالله في كل حال، فلا تكسره الشدائد، ولا تغره النعم، ولا ييأس من رحمة ربه أبدًا.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة الثامنة

بين باب الملك وباب الملوك

إذا احتاج الإنسان إلى صاحب منصب، فإنه يبحث عمن يعرفه، ويطلب من يشفع له، وينتظر موعدًا، وربما رُدَّ عن الباب، أو طال انتظاره، أو خرج خائبًا.

أما إذا كانت حاجتك عند الله، فالباب مفتوح لا يُغلق، والحجاب مرفوع، ولا تحتاج إلى واسطة تقربك إليه، ولا إلى موعد يحدد لك ساعة الدخول.

ففي أي لحظة من ليل أو نهار، تستطيع أن ترفع يديك، وتقول: **يا رب**.

وهذه الكلمة وحدها تملأ القلب طمأنينة.

يا رب...

كلمة قالها آدم عليه السلام بعد الزلة، ففتح الله له باب التوبة.

وقالها نوح عليه السلام وسط الطوفان، فجعل الله له النجاة.

وقالها إبراهيم عليه السلام في مواطن البلاء، فكان الله معه.

وقالها موسى عليه السلام عند الخوف، ففتح الله له أبواب الأمن والهداية.

وقالها زكريا عليه السلام وقد بلغ من الكبر عتيًّا، فرزقه الله من حيث لا تحتسب العقول.

وقالها يونس عليه السلام في ظلمات البحر، فاستجاب الله له، وأخرجه من الكرب.

إنها ليست مجرد كلمة، بل إعلان افتقار، واعتراف بأن الأمر كله بيد الله.

وما أجمل أن يعتاد العبد هذه الكلمة في كل أحواله.

إذا استيقظ قالها.

وإذا خرج قالها.

وإذا ضاقت به الدنيا قالها.

وإذا فرح قالها.

حتى يصبح قلبه متعلقًا بالله في كل نفس يتنفسه.

وليس من الأدب مع الله أن تدعوه وأنت تستصغر مطلوبك، فتقول: هذه الحاجة صغيرة لا تستحق الدعاء.

فكل شيء عند الله يسير.

سله الهداية، وسله الثبات، وسله العافية، وسله الرزق، وسله صلاح الذرية، وسله أن يشرح صدرك، وأن يبارك وقتك، وأن يغفر ذنبك، وأن يختم لك بالحسنى.

فإن خزائنه لا تنقص بالعطاء، ولا يثقله كثرة السائلين، ولا يمل من دعاء عباده.

ولو أن أهل الأرض جميعًا سألوه، فأعطى كل واحد منهم مسألته، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

إن أعظم ما يحرم الإنسان من الخير، ليس قلة الأسباب، وإنما قلة اللجوء إلى رب الأسباب.

فإذا أردت أن تبدأ حياة جديدة، فابدأها بكثرة الدعاء.

وإذا أردت أن تصلح قلبك، فأكثر من مناجاة الله.

وإذا أردت أن يفتح الله لك أبوابًا لم تخطر لك على بال، فأدم الوقوف على بابه.

فإن الكريم سبحانه يحب العبد اللحوح، الذي لا يترك الدعاء إذا تأخرت الإجابة، ولا ينصرف عن بابه إذا طال الانتظار، لأنه يعلم أن كل وقوف بين يدي الله شرف، وكل دمعة تخرج من خشية الله نور، وكل دعاء صادق يرفعه الله، إما أن يعجل أثره في الدنيا، وإما أن يدخر لصاحبه من الخير ما تتقاصر عن وصفه الكلمات.

واعلم أن من عاش عمره متعلقًا بالله، لم يعرف اليأس طريقًا إلى قلبه، لأنه كان يرى في كل محنة بابًا إلى ربه، وفي كل بلاء فرصةً لمزيد من القرب منه، وفي كل دعاء حياةً جديدة لروحه، حتى يلقى الله بقلبٍ امتلأ يقينًا، ولسانٍ لم يفتر عن ذكره، ونفسٍ أيقنت أن خزائن الرحمن لا تنفد أبدًا.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة التاسعة

من آداب الدعاء التي تفتح أبواب القبول

ليس المقصود من الدعاء أن تتحرك الشفاه بالكلمات، وإنما أن يحضر القلب بين يدي الله.

فإذا أردت أن تناجي ربك، فابدأ بحمده والثناء عليه بما هو أهله، فإنه سبحانه يحب أن يُحمد ويُثنى عليه، ثم صلِّ على نبيه محمد ﷺ، فإن الصلاة عليه من أعظم أسباب قبول الدعاء.

ثم اعترف بين يدي الله بضعفك، وبفقرك إليه، وبحاجتك إلى رحمته، فإن الاعتراف بالفقر إلى الله من أشرف مقامات العبودية.

ولا تستعجل الإجابة، فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك، وبين أن من أسباب الحرمان أن يقول العبد: دعوت فلم يُستجب لي، فيترك الدعاء.

وألحَّ على ربك، فإن الله يحب من عبده أن يكثر من سؤاله، وأن يداوم على قرع بابه.

واختر من الأوقات ما ترجى فيه الإجابة، كجوف الليل، وعقب الصلوات، وفي السجود، وعند الإفطار من الصيام، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة، مع صدق القلب وحضور اليقين.

واحذر أن يكون في مالك أو مطعمك أو مكسبك حرام، فإن القلب الذي يتغذى على الحرام يضعف أثر دعائه، ولذلك كان السلف يعتنون بطهارة المكسب كما يعتنون بكثرة الدعاء.

ولا تجعل الدعاء عادة موسمية، بل اجعله رفيقًا دائمًا.

ادعُ الله وأنت في عافيتك، تعرف إليه في أيام السعة، وأكثر من ذكره في الرخاء، فإن القلب الذي اعتاد اللجوء إلى الله قبل البلاء، يكون أصدق ثباتًا إذا نزلت به الشدائد.

وتذكر دائمًا أن الله لا ينظر إلى جمال الألفاظ بقدر ما ينظر إلى صدق القلوب.

فقد يخرج من قلب منكسر دعاء قليل الكلمات، لكنه يبلغ من القبول ما لا يبلغه كلام طويل خالٍ من الإخلاص.

وإذا فرغت من دعائك، فلا تنصرف وقلبك مضطرب، بل انصرف وأنت موقن أن الله قد سمعك، وأنه سبحانه سيختار لك ما هو خير، فإن اليقين بعد الدعاء من أعظم علامات حسن الظن بالله.

وهكذا يبقى الدعاء مدرسةً للإيمان، يربي القلب على الصبر، ويغرس فيه الرجاء، ويجعله متعلقًا برب العالمين في كل حين، حتى يصبح العبد إذا نزلت به نازلة، أو أحاطت به كربة، كان أول ما يخطر بباله أن يرفع يديه إلى السماء، لأنه علم أن أقرب طريق إلى الفرج هو طريق الله، وأن أقصر المسافات بين الهم والطمأنينة هي سجدة صادقة، ودعوة مخلصة، وقلب امتلأ يقينًا بأن الكريم سبحانه لا يرد من قصده صادقًا.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة العاشرة

العقبات التي تحرم العبد بركة الدعاء

ليس كل من رفع يديه حُرم، ولكن قد يحول بين العبد وبين كمال بركة الدعاء حجابٌ صنعه بيده، فإذا أزاله، انفتحت له أبواب من الخير كان يظنها بعيدة.

وأول هذه الحجب **الغفلة**.

فكم من لسان يردد الدعاء، وقلبه يجول في الدنيا، لا يستشعر عظمة من يقف بين يديه، ولا يستحضر أنه يناجي رب السماوات والأرض. والدعاء حياة القلوب، فإذا غفل القلب ضعف أثر المناجاة.

ومن أعظم الحجب **الاستعجال**.

فما إن تمر أيام أو أشهر، حتى يقول بعض الناس: دعوت كثيرًا، فلم أر شيئًا. ولو علم أن الله يدبر له الخير في كل لحظة، لما ضاق صدره، ولما ترك بابًا أحبه الله منه أن يلازمه.

ومن الحجب كذلك **الإصرار على الذنب** مع الإقامة عليه وعدم التوبة. فالذنوب تورث قسوة القلب، وإذا قسا القلب ضعف انكساره بين يدي الله. وليس معنى ذلك أن المذنب لا يدعو، بل الواجب أن يجمع بين التوبة والدعاء، فإن الله يحب التوابين، ويفرح بعودة عبده إليه.

ومن الحجب **أكل الحرام والتوسع في المكاسب المحرمة**؛ فإن العبد مأمور أن يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه وملبسه، وأن يطهر رزقه، فإن صلاح الظاهر يعين على صلاح الباطن.

ومن الحجب أيضًا **سوء الظن بالله**.

فبعض الناس يدعو، ولكنه في أعماقه يظن أن حاجته لن تُقضى، أو أن ذنوبه أكبر من رحمة الله، أو أن أبواب الفرج قد أغلقت.

وهذا القلب يحتاج أن يتعرف إلى ربه أكثر؛ فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وهو سبحانه يحب أن يرجع إليه عبده مهما كثرت زلاته، ما دام صادقًا في التوبة والإنابة.

ثم اعلم أن الدعاء ليس ألفاظًا تحفظ، ولا عبارات تُردد، وإنما هو قلب يفتقر، وعين تدمع، وروح تتعلق بالله وحده.

فإذا وجدت من نفسك قسوة، فلا تترك الدعاء، بل أكثر منه.

وإذا رأيت ذنبًا، فلا تبتعد عن باب الله، بل ارجع إليه تائبًا.

وإذا تأخرت الإجابة، فلا تنصرف، بل ازدد إلحاحًا، فإن الكريم إذا أحب عبدًا، أحب أن يسمع صوته، ويرى افتقاره، ويكرمه في الوقت الذي اختاره له بعلمه ورحمته.

واعلم أن الشيطان لا يحزن لشيء كما يحزن حين يرى عبدًا قد علق قلبه بالله، لأنه يعلم أن هذا القلب إذا صدق في اللجوء إلى ربه، فلن يستطيع أن يقطعه عن طريق النجاة.

فاثبت على باب الله، ولا تستبدل بابه بابًا، ولا ترجُ من الخلق ما لا يملكه إلا الخالق، واجعل شعار قلبك في كل صباح ومساء:

يا رب... لا أطرق إلا بابك، ولا أرجو إلا فضلك، ولا أثق إلا بوعدك، فأنت حسبي، وأنت نعم الوكيل.

الدعاء... المفتاح الأعظم لخزائن الله

الصفحة الحادية عشرة

إذا وقفت على باب الله... فلا تنصرف

ها قد وصلت إلى آخر صفحات هذا الكتيب، ولكن رحلتك مع الدعاء ينبغي ألا تنتهي عند هذه الصفحة، بل تبدأ منها.

تذكر دائمًا أن أعظم الخاسرين ليس من تأخرت عنه الدنيا، وإنما من انصرف عن باب الله يائسًا.

واذكر أن الله سبحانه لم يأمرك بالدعاء لأنه محتاج إلى دعائك، وإنما أمرك به لأنه يريد أن يكرمك، وأن يسمع صوتك، وأن يرفع قدرك، وأن يفيض عليك من خزائن فضله التي لا تنفد.

فإذا ضاقت بك الدنيا، فلا تقل: إلى أين أذهب؟

بل قل: إلى ربي.

وإذا أظلمت الطرق، فلا تبحث أولًا عن الناس، ولكن ابحث عن سجادة صلاتك.

وإذا تكاثرت الهموم، فلا تجعل لسانك أسير الشكوى، بل اجعله رطبًا بقول: **يا رب.**

واعلم أن الدعاء ليس بابًا للضعفاء، بل هو شرف العابدين، وسلاح المؤمنين، وراحة المحزونين، وأنس المنكسرين، وطريق العارفين بالله.

ورب دعوة خرجت من قلب مخلص، غيَّرت حياة صاحبها، ورب دمعة في جوف الليل كانت سببًا في فرج لم يكن يخطر على بال.

فلا تستصغر دعاءً، ولا تحتقر دمعةً، ولا تيأس من رحمة الله، فإن بين الكاف والنون أسرارًا لا يعلمها إلا الله، وإذا أراد سبحانه شيئًا قال له: **كن** فيكون.

واجعل لك وردًا ثابتًا من الدعاء كل يوم، في السحر، وبعد الصلوات، وفي السجود، وفي ساعات الخلوة، وأكثر من حمد الله، والصلاة على نبيه ﷺ، وسؤال الله بقلب حاضر، ونفس مطمئنة، ويقين لا يتزعزع.

واعلم أن كل دعاء صادق محفوظ عند الله، فلا يضيع منه حرف، ولا تغيب عنه دمعة، ولا يخفى عليه أنين قلب.

فإذا لم ترَ أثر دعائك اليوم، فاصبر، فإن ربك يدبر لك من الخير ما هو أعظم مما تتخيل، وسيأتي يوم تنظر فيه إلى نعم الله عليك، فتقول: **الحمد لله الذي اختار لي خيرًا مما كنت أختار لنفسي.**

دعاء الختام

اللهم يا واسع الفضل، ويا عظيم المن، ويا كريم العطاء، نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل الدعاء أحب العبادات إلى قلوبنا، وأن ترزقنا الإخلاص فيه، وحضور القلب عند مناجاتك، وحسن الظن بك، واليقين بوعدك.

اللهم افتح لنا أبواب رحمتك، وأنزل علينا من بركاتك، وأغننا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك، واجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

اللهم لا تردنا خائبين، ولا تحرمنا لذة مناجاتك، ولا تغلق عنا باب فضلك، واجعل آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، واحشرنا في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله.